مجلة اللغة العربية وآدابها علمية محكمة
السنة ١٤، العدد ١، ربيع ١٤٣٩هـ
صفحة ٦٧ – ٨٥

Print ISSN: 1735-9767
Online ISSN: 2423-6187
jal-lq.ut.ac.ir

رثاء الزوجة في الشعر العربي والفارسي

جرير بن عطية وخاقاني شرواني نموذجا، على ضوء المدرسة الأمريكية

نعيم عموري*

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة شهيد چمران أهواز

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/١٠/٢٢ ؛ تاريخ القبول: ٢٠١٨/٦/٣)

الملخّص

يحتوي الرثاء على أصدق العواطف؛ في الشعر العربي القديم كان رثاء الأب، والأمّ، والأخ، والأخت، والزوجة لكن رثاء الزوجة بالنسبة لرثاء الزوج كان ضئيلاً جداً، رثاء الزوجة في الأدب الفارسي موجود أيضاً، هذا البحث يدرس رثاء جرير بن عطية لزوجته ورثاء شاعر شروان خاقاني لزوجته وِفق المدرسة الأمريكية في الأدب المقارَن وعلى أساس آراء "رنيه ويليك" يهدف هذا البحث إلى دراسة المشتركات الأدبية والثقافية في الأدبين العربي والفارسي القديمين واللذين كانت وماتزال بينهما مشتركات موضوعية، توصّل هذا البحث إلى قلّة رثاء الزوجة في الشعر العربي وكثرتها في الشعر الفارسي، وعلى أساس المدرسة الأمريكية فإنّ ثقافة الشاعر مهمّة جداً في تَقَبُّل هذا المضمون الأدبي وأنّ التعقيد والخشونة اللغوية عند جرير وخاقاني في رثائهما لزوجتيهما قد لَانَ وسهُلَ؛ لأنّ الشاعر في أصدق حالاته الشعرية وهو في حالة مُزرية وبُكاء وعَويل على مَن أحبّها بصدق. وهذا الصدق انعكس في شعر الشاعرين، منهج البحث في هذه المقالة وصفي- تحليلي.

الكلمات الرئيسة

جرير، خاقاني، الرثاء، الزوجة، المدرسة الأمريكية.

* بريد الكاتب Email: naim_amouri@yahoo.com

Archive of SID

www.SID.ir

مقدمة

« للمرأة منذ القدم دور هامّ وفعّال في الحياة البشرية وتكاتفت الرجل في عسيرات الحياة وصعوباتها على الرغم من هذا الأمر هي طول التاريخ كانت تتألم بالتمييز الجنسي وتعتبر هامشيةً ودونية بالنسبة إى الرجل، واستمرت هذه النظرة السلبية إليها، حيث المرأة نفسها اعتقدت بدونيتها» (خزعلي وأونق، ١٤٣٦هـ: ٤٠٩) لا تهتمّ المدرسة الأمريكية باختلاف اللغة، ولا تهتمّ بالموضوعات المشتركة وإنما هي مدرسة يهمها النقد الأدبي واختلاف أو تشابه الثقافات، فهي تدرس الثقافة المنتمي لها الأديب، تدرس مستوى الاجتماعي والفكري للأديبين أو الشاعرين، وركّز "رينية ويليك" على النقد الأدبي والمستوى الثقافي، فهذه المقالة لا تدرس اختلاف اللغة ولا تشابه الموضوع وإنما بنظرة نقدية تدرس الاختلاف والتشابه الثقافي لدى الشاعرين جرير بن عطية الشاعر العربي الأموي وبين خاقاني شرواني الشاعر الفارسي ويدرس البحث المستوى الثقافي والبيئة الاجتماعية والفكرية التي ينتمي إيها كلّ مِن الشاعرينِ؛ جرير وخاقاني في موضوع رثاء الزوجة، فالمرثيات أشرف الأشعار في الذاكرة الشعرية العربية، وأكثرَها تأثيراً في وجدان المتلقّي، لأنها تتسم بحرارة التجربة وقوة الأداء الشعوري، وإذا كان هذا الرثاء موجّها لأحد أفراد الأسرة سيكون في قمة التأثير في العواطف الجيّاشة، هذا وإذا كان الشاعر يرثي زوجته وحبيبته، هي مكمن الحبِّ ومعدنه وسكينته وطُمأنينته، حيثُ سَلَبَهَا الدهرُ منه، فالشاعر ينتفض انتفاضة عاطفية شعورية يُبكي مَن حوله ولو مرَّت قرون، هذا حال الشاعر جرير بن عطية في رثائه لزوجته خالدة والتي بكاها بُكاء مُرّاً وهكذا رثاء خاقاني شرواني الشاعر الفارسي، فَلَانَ طبع هذين الشاعرين اللذين يتصفان بصعوبة القول وخشونة الأسلوب وَرَانَ قلبهما عَلى حبِّ الحليلة، وتفجّرت عواطفهما ونحبا عليهما وحُقَّ لهما النحيب.

هذا البحث يرتكز على المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن وعلى ما ذهب إليه المُنظِّر الأمريكي"رينيه ويليك" يهتم البحث بالنقد وفق المدرسة الأمريكية وبثقافة للشاعرين في دراسة رثاء الزوجة عند جرير وخاقاني وذلك بهدف دراسة المشتركات الثقافية والأدبية، فقد تطرّق البحث إلى الرثاء لغة واصطلاحا والرثاء في الشعر العربي والفارسي وإلى المدرسة الأمريكية منتهياً برثاء جرير وخاقاني ومقارنة الرثائين وخاتمة. انطلق هذا البحث مِن منطلق الأسئلة التالية:

Archive of SID

www.SID.ir

- كيف تجلّى الرثاء عند جرير وخاقاني على ضوء المدرسة الأمريكية؟
- ما هي المرتكزات الأساسية في هذه الدراسة المقارنة للشاعرين؟

فرضيات البحث

- وِفق المدرسة الأمريكية تجلّى رثاء الشاعرين مِن منطلق ثقافتهما وبيئتهما الاجتماعية وما كان لهما وما عليهما مِن البيئة الاجتماعية والتقاليد الموجودة آنذاك حيث جرير يبدأ باستحياء لرثائه الموجع وخاقاني يُدخل العناصر الشعبية كالحسد في رثائه سبباً لموت زوجته.
- المرتكزات الأساسية هي المشتركات في شخصية جرير وخاقاني مِن جهة والمشترك الموضوعي في رثائهما مِن جهة أخري؛ كلاهما جرير وخاقاني يُعاني مِن عُقدة النقص والحقارة بسبب ظلم المجتمع له، بسبب الفقر أو حقارة النسب أو كثرة الأعداء، أما المشترك الموضوعي في الرثاء فهو ذكر الخصال الحميدة للزوجة المتوفاة، صدق العاطفة وسهولة أسلوبهما.

خلفية البحث

في بحثي ودراستي حول هذا العنوان لم أعثر على بحث بهذا العنوان وأنه جديد وله السبق في هذا المضمار، لكن هناك دراسات تناولت خاقاني لوحده أو مقارنة مع شاعر غير جرير وهكذا دراسات حول جرير لوحده دون خاقاني ومنها:

مقالة:«جستارى درمرثيه‌هاي خاقاني شرواني» لأحمد غني پ‌ورملكشاه، ومرتضى محسني، وسوگل خسروي، مجلة پژوهش‌هاي ادبي وبلاغي، جامعة طهران عام (١٣٩٤ش) هذه المقالة تطرّقت إلى الرثاء في أشعار خاقاني ولم تُركز على الدراسة المقارَنة. ومقالة: «نقد روانكاوانه سوگنامه‌هاي خاقاني شرواني» لشيرزاد طايفي، وآنيتا خالقي بمجلة پژوهش‌هاي نقد أدبي وبلاغت، جامعة طهران، عام (١٣٩٣ش) درست هذه المقالة رثاء خاقاني على مكتب النقد النفسي ولم تتطرق إلى الدراسات المقارنة وفي المقالتين دراسات حول رثاء خاقاني بصورة عامّة وذكر الباحثون أنواع الرثاء عند خاقاني. ومقالة: «بررسي تطبيقي مرثيه‌هاي ابن رومي وخاقاني در سوگ فرزند» لعباس عرب وحسن خلف بمجلة كاوشنامةادبيّات تطبيقي جامعة رازي كرمانشاه، عام (١٣٩١ش) وفيها دراسة حول رثاء

Archive of SID

www.SID.ir

الشاعرين لإبنيهما. ومقالة :«مرثيه سرايي در ادب فارسي وعربي با تكيه بر مقايسة مرثية ابوالحسن تهامي ومرثية خاقاني شرواني» لناصر محسني نيا، وآرزو پور يزدان پناه كرماني، عام (١٣٨٧ش) بمجلة أدبيات تطبيقي كرمان درسا فيها رثاء الإبن، ومقالة: «رثاء الزوجات ومشكلة الجندر في الثقافة العربية» لمحمد مظلوم مجلة الكوفة، عام (٢٠١٢م) يبحث الباحث حول رثاء الزوجات في الشعر العربي مِن جهة الثقافة العربية وأيضا رسالة: «رثاء الزوجة في الشعر العربي الحديث ديوان حصاد الدمع لمحمد البيومي أنموذجا» لآمال العودة سليمان أبو عاذرة بجامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا. عام (دون تا) درست فيها رثاء محمد بيومي فكما نلاحظ لم أعثر على دراسة تلمّ شمل جرير وخاقاني في رثائهما لزوجتيهما.

الرثاء لغة واصطلاحاً

الرثاء في اللغة مشتق من الفعل (رثى) يقال رثى الميت رثياً ورثاء ورثاية ومرثاة ومرثية بمعنى بكاه بعد موته وعدد محاسنه، ورثى له بمعنى رحمه ورق له، والرثاية: النوّاحة (ابن منظور، ١٩٩٦م: مادة رثي) والرثاء في الاصطلاح: هو تأبين الميت وذكر محاسنه وفضائل أخلاقه وتصوير ما يترك فقده من أثر في القلوب من أسى وحسرة وفزع. وأمّا معناه في الاِصطلاح، فيقول قدامة بن جعفر: «ليس بين المَراثي والنّعتِ فرقٌ إلّا أن يذكر في اللفظ ما يَدلّ على أنّه لهالك مثلُ «كانَ وتولّى وقَضَى وما أشبه ذلك»، وهذا ليس يزيدُ في المعنى ولا ينقص منه. وقد يسلَك في التأبين مَسلَك آخَرُ يدلُّ على الرَّثاء، كأن يقال: ذهب الجودُ، أو مَن للجود بعده؟ وما أشبه ذلك. (قدامة بن جعفر، ١٩٣٤م: ٥٩)

الرثاء في الشعر العربي

عرف الشعراء العرب الرثاء من قبل الإسلام إلى يومنا هذا، وكان من أغراضه الرئيسة وقلما تجد شاعراً لم ينظم فيه، لأنّه صورة صادقة لعمق العلاقات الاجتماعية ومرآة تنعكس عليها العاطفة المشبوبة تجاه المرثي. إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، كما كانوا يقفون على قبورهم مؤبنين لهم مُثْنين على خصالهم وقد يخلطون ذلك بالتفكير في مأساة الحياة وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت وأن ذلك مصير محتوم. ولقد كان نقاد العرب القدامى يرون في الرثاء باباً من أبواب المديح؛ باعتبار أن الراثي يعدّد مناقب الميت التي

Archive of SID

www.SID.ir

تدعو الإنسان إلى البكاء عليه؛ لأنّه بفقده للميت قد فَقَدَ تلك المناقب والحسنات ولذلك نرى أن قدامة بن جعفر يرى «أنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك» (حوّر، ١٤٠١هـ: ٩؛ نقلا عن قدامة بن جعفر، نقد الشعر) وروي عن الأصمعي أنه سأل أعرابياً عن المراثي: ما بالها أشرف أشعارهم فقال:« لأننا نقولها وقلوبنا محترقة» (ابن عبد ربه، ١٩٨٣م: ج١٨٣/٣) ويرتكز الرثاء على العاطفة بل يمكنالقول إنّه أصفى أنواع الشعر العاطفي وأكثرها اتساقاً مع النفس الإنسانية؛ لأنّه يستمد مادته من القلب ويعبر عن الشعور يجد فيه الشاعر متنفساً عما يكنه قلبه من آلام وأشجان يؤطرها بآراء سامية عميقة، وكلما كانت العلاقة بالمرثي متينة جاءت القصائد أكثر قوة وأصدق عاطفة، ولم ينظم شعراء العربية الأوائل قصائد خاصة بالرثاء بل تكاد الموضوعات تشترك في القصيدة على وفق نظام خاص سارت عليه القصائد العربية وكثيراً ما يقترن شعر الحماسة بشعر الرثاء؛ لأنَّ الشاعر كان يقصد الثأر من رثائه، ومن أقدم نماذج الرثاء في الشعر العربي قول العوام بن كعب المازني في رثاء زوجته: (المرزباني، ١٩٦٠م: ١٦٤)

فَقَلَتُ لِقَلبِي لَا تَبك فَإِنَّهُ كَذَاكَ اللَّيَالِي طُولُهَا وَقَصِيرُهَا
فَإِنِّي لَبَاكٍ مَا بَقِيتُ وَإِنَّهُ لَأَسوَأ عَبَرَاتِ الرِّجَالِ كَثِيرُهَا

ومِن أصدق وأوجع ما قيل في رثاء الزوجة في الشعر العربي رثاء عمرو بن قيس بن مسعود المرادي الذي خاطب ابنته أو أخته سُعيد حيث يدعوها إلى إقامة مأتم على زوجته سعدى:

سُعَيدُ قُومِي عَلَى سُعدَى فَبَكِّهَا فَلَستُ مُحصِيةً كُلُّ الذِي فِيهَا
فِي مَأتَمٍ كَضِبَاءِ الرَّوضِ قَد قَرَحَت مِن البُكَاءِ عَلَى سُعدَى مَآقِيَا

(الجبوري، دون تا: ٣٢٧)

الشعر العربي يزخر برثاء الزوجات وهذا ما جاء في مراثي الزوجات في حماسة أبي تمام (النورسي، ٢٠١٢م: ١٣١) وتستمر صورة الرثاء بهذه الطريقة طيلة عصر ما قبل الإسلام إلى أن هذا الغرض قد تطور في العصر الإسلامي، وأخذ يحمل معاني القرآن الكريم وروحه وظهرت مفردات جديدة مستمدة من روح العقيدة الإسلامية من تلك ألفاظ الشهادة والجهاد والجنة والنار وما إلى ذلك من مفردات دخلت الشعر الاسلامي بصورتها الجديدة، أما رثاء الزوجة في الشعر العربي قليل جداً وكان رثاء الزوجة على استحياء وذلك بسبب محدودية المضمون كما أشار إبن رشيق: «ومِن أشدّ الرثاء صعوبة على الشاعر أن طفلاً أو

Archive of SID

www.SID.ir

امرأة» (١٩٦٣م: ج١٥/٢) ولربّما قلة الرثاء بسبب قدسية العلاقة الزوجية والخصوصية التي تتمتع بها هذه العلاقة وأنّ العُرف الاجتماعي لا يُجيز هذا النوع مِن الرثاء وبهذا السبب عاب الفرزدق رثاء جرير في زوجته وعيّره:

إنَّ الزِّيـــــارَة في الحيـــــاةِ ولا أرَى ... مَيْتَـــاً إذا دَخَـــلَ الْقبُـــورَ يُـــزَارُ

ورَثَيْتَهَـــا وفضَـــحْتَها في قبرِهَـــا ... مـــا مِثْـــلَ ذلـــكَ تَفْعَـــلُ الأخْيَـــارُ

(الفرزدق، دون تا: ج٣٧٥/١)

ولعل الفرزدق في هذا يعبر عن اتجاه فكري للمجتمع، حتى لو تقدم هذا المجتمع زمنيا وحضاريا، إلا أن تلك النظرة لرثاء المرأة لم تنل حظا من هذا التطور.

الرثاء في الشعر الفارسي

الرثاء في الشعر الفارسي له تاريخ طويل ونشأ مع الشعر الفارسي وهناك مراثٍ للشعراء الفرس تنتمي إلى عصر ماقبل الإسلام، هذه المراثي ذُكرت في الأساطير الفارسية؛ رثاء«مرزكو» كنموذج من الرثاء الفارسي لعصر ما قبل الإسلام (افسري كرماني، ١٣٧١ش: ١٦) ورثاء «سياوش» و«زرير» في الأساطير الفارسية تدخل في إطار الرثاء في الزمن القديم للرثاء الفارسي وقد ذُكرت هذه المراثي في الشاهنامة للفردوسي (امامي، ١٣٦٨ش: ٢٠) المراثي كثرت في العصر الإسلامي بعد رودكي ومِن أقدمها رثاء لأبي الينبغي ومحمد بن وصيف السيستاني، وشيخ ابي العبّاس فضل بن عبّاس ربنجبى بخارايي (غني پور وآخرون، ١٣٩٤ش: ٧٨) ثُمَّ تعدد الشعراء الفرس بهذا المضمون فهناك مراثي للشهيد البلخي، وفرخي السيستاني، وفردوسي الطوسي، والنظامي، وخاقاني الشرواني، وكمال الدين إسماعيل الإصفهاني، ومسعود سعد سلمان، وسعدي، وحافظ وغيرهم (محسني نيا؛ پوريزدان؛ كرماني، ١٣٨٨ش: ١٧٧) وما يهمنا في هذا البحث هو رثاء خاقاني شرواني لزوجته.

المدرسة الأمريكية

مِن الاتجاهات النقدية التي تعارضت مواقعها النظرية والتطبيقية تعارضاً شديداً مع الاتجاه التاريخي في الأدب المقارن ذلك الاتجاه النقدي الذي يُعرف "بالنقد الجديد[1]" فقد حمل رينيه ويليك، وهو أبرز ممثلي هذا الاتجاه على دراسات التأثير وأسسها الفلسفية والنظرية

1. New Criticism

Archive of SID

www.SID.ir

وتطبيقاتها ودورها، لقد وجّه ويليك إلى دراسات التأثير وإلى المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن نقداً لامثيل له في حدتّه، ونسف أسس تلك المدرسة ومرتكزاتها. فقد أخذ عليها أنها من الناحية النظرية مثقلة بأعباء فلسفات القرن التاسع عشر، كالنزعتين التاريخية والوضعية، وأنها تتعامل مع النصوص الأدبية بصورة خارجية، وفي منأى عن أدبيتها، ولا تتعامل مع الأبعاد الداخلية لتلك النصوص، أي مع جوهرها الفنّي والجمالي. وبهذه المناسبة ذكّر ويليك زملاءه الفرنسيين التقليديين بأنّ العمل الأدبي "بنية ذات طبقات من الرموز والمعاني المستقلة تمام الاستقلال عن العمليات التي تدور في ذهن الكاتب أثناء التأليف، ولذا فهي مستقلة أيضاً عن المؤثرات التي قد تكون شكّلت ذهنه" (عبوّد، ١٩٩٩م: ٤٧) يؤكد رينيه ويليك على دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخري، وذلك من مثل الفنون (كالرسم و النحت والعمارة والموسيقي والفلسفة، والتاريخ، والعلوم الاجتماعية (كالسياسة والاقتصاد والاجتماع)، والعلوم، والديانة وغير ذلك. وباختصار، هو مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخري، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني (الخطيب، ١٩٩٩م: ٥٠) في الحقيقة المدرسة "الأمريكية" اهتمت بدراسات "التوازي والتقابل" بين الآداب (عبوّد، ١٩٩٩م: ٣١) إلا أنّها لم تكتفِ بنقل اهتمام الأدب المقارن من العلاقات الخارجية إلى العلاقات الداخلية للأدب، بل تخطّت ذلك إلى المطالبة بأن تنفتح الدراسات المقارنة على نوع آخر من المقارنات، ألا وهو مقارنة الأدب بالفنون والعلوم وحقول المعرفة والوعي الإنساني الأخرى.

المدرسة الأمريكية ترتكز على مقوّمات ومِن أهمّها:

«- مقولة أخلاقية ترى جميع الآداب والثقافات المختلفة متساوية في القيمة والعطاء، وترفض مبدئياً تميز ددب على أدب، أو سيطرة ثقافة على ثقافة.

-مقولة سياسية تنادي بالانفتاح على الآداب والثقافات المختلفة، وتفهم التراكم الثقافي والأدبي المختزن عبرة مسيرة التاريخ الإنساني.

-مقولة نقدية وتنظيرية تقول بوحدة الظاهرة الأدبية على اختلاف فضاءاتها الزمانيّة والمكانية واختلاف تشكيلاتها اللغوية واختلاف حدودها القوميّة» (پروينى، ١٣٩١ش: ٦٨-٦٩؛ نقلا عن رضوان، ٢٠-٢١).

Archive of SID

www.SID.ir

تحليل رثاء الزوجة عند جرير وخاقاني

كان جرير من الشعراء السباقين الذين رثوا زوجاتهم، ولعله أجرأ من فعل ذلك، فلم يكن رثاء الزوجة أمرا يقبل عليه الشعراء بيسر، ولعل السبب الذي كان يحول دون ذلك، الخصوصية الشديدة بين الرجل وزوجه، وليس الشاعر فقط من يحظر عليه التكلم عن تلك العلاقة، بل إن الإنسان العادي كان يتحرج من ذكر أبسط الأمور بينه وزوجه، وعلى ذلك فالشاعر أكثر مساءلة عندما يتحدث عن تلك العلاقة، فهو ناطق رسمي للعادات والتقاليد، ومن الصعوبة أن يتجاوز هذا العرف، ومن ناحية أخرى، أن المجتمع يرفض جزع الرجل، وإظهار ضعفه في مطلق الأحوال، فكيف به يقبل هذا الجزع على زوجته؟ هذه الأسباب الاجتماعية وغيرها مما لا يزال يقبع في أعماق العربي شاعرا كان أو غير شاعر من النظرة إلى المرأة، حالت دون رثائها بالحماسة نفسها التي رُثي بها الرجال وحتى الأبناء. لخاقاني الشرواني حياة تشبه حياة جرير بن عطية، من فقد زوجته إلى فقد ابنه، كلاهما فقد الزوجة والابن وكلاهما يشعر بنوع من النقص في المجتمع الذي يعيش به، جرير بسبب نسبه وخاقاني بسبب فقر أبيه وبسبب أنّ المجتمع آنذاك كان ينظر إليه نظرة دونية وأنّ والدته مسيحية هذا مايُفهم من أشعاره ولخاقاني منافسون وحسّاد كثيرون منهم الشاعر عنصري ولجرير أيضا منافسون منهم الفرزدق والأخطل وغيرهما، فالمعروف عن لغة خاقاني أنها لغة معقّدة وصعبة وعُقدة الحقارة والمصائب التي ألّمت بخاقاني جعلته يبني أشعاره على المعاني الغامضة والتعابير الجديدة ويغرق في الوصف ويُكثرُ من التشبيهات الغريبة، ومن أهمِّ ميزات شعره الإغراق في استخدام التناسب اللفظي والمعنوي وكان يتصرف في المضامين البسيطة السهلة حتى يُحدث تعبيراً جديداً ونلاحظ هذه التعابير الجديدة مُنشئة من معانيه البسيطة وانّه أفرد لرثاء زوجته قصائد عدّة ولكن جرير _على جرأته_ لم يفرد لرثاء زوجته قصيدة كاملة، بل هجا فيها غريمه الفرزدق، وهذا ما يؤكد أنَّ الزوجة لم تحظَ في العصر الأموي بقصيدة مستقلة ترثى فيها، وفي ذلك تجسيد للسياق الاجتماعي الذي تعكسه أعمال الشاعر، وفي رثاء جرير زوجته يكون قد فتح بابا كان الشعراء يخشون وُلُوجَهُ وهو رثاء الزوجة، غير أنه لم يسلم من تعرضه للسخرية من الفرزدق الذي عيّره برثائها كما سبقت الإشارة إلى ذلك. هذا الأمر يبين الاختلاف الثقافي في المجتمعين العربي والفارسي، وهذا الاختلاف يرجع إلى البيئة الاجتماعية للشاعرين، فجرير عاش في بيئةٍ صحراوية خشنة وخاقاني تنعّم عند السلاطين، وجرير لم يرثِ زوجته على ذلك النحو الذي يرتمي فيه الشاعر بين أحضان الاستسلام والضعف

Archive of SID

www.SID.ir

والضياع، بل جاء رثاؤه رزينا، وكان فيه متماسكا في حزنه، وسوَّغ رثاءه في القصيدة التي ظهر فيها استحياؤه من البكاء عليها وزيارتها، وهنا أيضا تتجلى القيود الاجتماعية تلك التي ترفع قيما وتحط أخرى، ورثاء الزوجة لم يكن من الموضوعات الشعرية التي ترفع قدر الشاعر، إلا أن جريرًا رثاها في أربعة وعشرين بيتا، ويمكن عدّ هذه الأبيات قصيدة كاملة تتوحد في موضوعها، إلا أنها تبقى غير مستقلة الغرض، مما يؤكد أن رثاء المرأة لم يكن من الأغراض التي يحفل بها المجتمع، وكذلك الشاعر العربي الذي يمثل صدى لروح المجتمع (أبوعاذرة، دون تا: ٢٥-٢٦)؛ لأنَّ المجتمع آنذاك لا يتقبّل فكرة رثاء الزوجة، حيث بدأ قصيدته بـ:

لَولَا الحَيَاءُ لَهَاجَنِي اِستِعبَارُ وَلَزُرتُ قَبرَكِ وَالحَبِيبُ يُزَارُ

(جرير، ١٩٩٩م: ١٥٦)

أما خاقاني يندب بصوت شجيّ زوجته ولا يرى سببا للحياء أنّه علاوة على استخدام المفردات كان يُغيرُ على المعاني ويبدع فيها ولربّما يُحدث غموضاً في فهم أشعاره، إنّه لم يحترم القدماء من الشعراء ومن شعراء زمانه إلاّ سنائي وهذه الأنانية سبّبت إزعاج الكثير من شعراء عصره، يستخدم خاقاني التعابير الغريبة والوحشية والغاضبة وانّه تبع سنائي في عرفانه وزهده لكن لغة خاقاني خشنة وحشية واللغة الناعمة المرنة عند حافظ الشيرازي لا تصل إلى مستوى هذه اللغة الصلبة والقوية عند خاقاني؛ وراء المحسنات اللفظية والمعنوية والتشبيهات والاستعارات والكنايات الجميلة هناك شخصية خاقاني التي تظهر علينا من وراء تعابيره العجيبة، نلاحظ العناصر الإنسانية بكثرة في هجوه ومراثيه وتقلّ هذه العناصر في غزله، ولا نلاحظ العناصر الإنسانية في مرثيته لزوجته وانّه يبتعد عن الغموض فيها ولغته تصبح لغة سهلة مرنه. (زرين‌كوب، ١٣٧٨ش: ٢٩) فهو يلين في رثائه ويذوب في ندبته لزوجته ويقول في قصيدة "دردِ فراق":

بر دردِ دل دوا چه بُوَد تا من آن كنم گويند صبر كن، نه همانا من آن كنم
درد فراق را به دكانِ طبيبِ عشق بيرون ز صبر چيست مداوا، من آن كنم
گوئي: «زبانِ صبر چه گويد در اين حديث؟» گويد: «مكن خروش به عمدا، من آن كنم»
گفتي كه يار نو طلبي ودگر كني حاشا كه جانم آن طلبد يا من آن كنم
اندُه گسار من شد وانده به من گذاشت وامق چه كرد ز انده عذرا، من آن كنم
كاووس در فراق سياوش به اشك خون با لشكري چه كرد به تنها، من آن كنم

Archive of SID

www.SID.ir

خورشيد من به زير گل آنجا چه مي‌كند غرقه ميان خون دل اينجا من آن كنم
فرياد چون كند دل خاقاني از فراق از من همان طلب كن زيرا من آن كنم

(خاقاني، ١٣٧٥ش: ٢٤٧؛ شعار، ١٣٧٠ش: ٤١-٤٣)

كما نلاحظ في الأبيات التي يندب فيها زوجته يتوجّع على الفراق ويبحث عن منفذ للصبر لكن أين الصبر من هذا الحَدَث الجلل وهذه المصيبة ثمّ يُعرّج على اللائمين عليه في البيت الثالث "مكن خروش" لا تجزع لكنه يقول وبتحسر وألم "به عمدا من آن كنم" متعمِّداً أجزع؛ ثم يستمر في نوحه ونحيبه ويتطرّق إلى أقوال الناس حيث يحثّونه على الزواج من إمرأة أخرى "گفتي كه يارِ نو طلبي ودگر كني" لكنّ شاعرنا يُجيبهم بحاشا وذلك لشدّة تعلُّقه بها، «في مراثي خاقاني كل العوامل الشعرية في خدمة المضمون وتكون في خدمة الرثاء وغنائه، هكذا جرير بن عطية مع انه لديه زوجة غير هذه الزوجة المتوفية لكن ندبها وبكاها بكاء مُرّاً ومن ضمن تلك العوامل الشعرية هو الرديف، شعر خاقاني في قمة التلاعب برديف القوافي، وكان خاقاني يُناسب بين موضوع الشعر والرديف» (شفيعي كدكني، ١٣٧٩ش: ١٥٣) وأيضا شعر جرير حيث لَانَ شعره بسبب رقة الرثاء العاطفي.

جرير بَدَأَ قصيدته بتفسير الموقف الاجتماعي وإظهاره للعيان وباِعتذار ضمني، لكن حسرته كانت واضحة لذا قدم القصيدة بجميل الاعتذار الذي أسسه الحياء، فها هو يحبس دموعه خجلا بحسن اعتذار وجرير على جرأته حيٌّ من البكاء عليها، فيكتفي بالنظر إلى لحدها حيث حفر المعول قبرها، فلم يملك إلا أن يدعو لها:

وَلَقَد نَظَرتُ، وَمَا تَمَتُّعُ نَظرَةٍ فِي اللَّحدِ، حَيثُ تَمَكَّنَ المِحفَارُ؟
فَجَزَاكِ رَبُّكِ فِي عَشِيرِكِ نَظرَةً وَسَقَى صَدَاكِ مُجَلجَلٌ مِدرَارُ
وَلَهَت قَلبِي إِذ عَلَتنِي كَبرَةٌ، وَذَوُو التَّمَائِمِ مِن بَنِيكِ صِغَارُ
أَرعَى النُّجُومَ وَقَد مَضَت غُورِيَّةً عَصَبَ النُّجُومُ كَأَنَّهُنَّ صِوَارُ
نِعمَ القَرِينُ وَكُنتِ عِلقَ مَضِنَّةٍ وَارَى، بِنَعفٍ بَلِيَّةٍ، الأَحجَارُ
عُمِّرتِ مُكرِمَةَ المَسَاكِ وَفَارَقَت مَا مَسَّهَا صَلَفٌ وَلَا إِقتَارُ

(جرير، ١٩٩٩م: ١٥٦)

هناك أسباب دفعت جرير لرثاء زوجته "خالدة"، فقد سوَّغ جرير رثاءها بكبر السن والخشية من الوحدة، والضعف والحاجة إلى من يعينه عند الكبر، وكذلك أطفالها الصغار الذين غدرت

Archive of SID

www.SID.ir

بهم الدنيا وحرمتهم الأم الحنون، كل ذلك صعد من ألم الشاعر وجعله يستمرئ رثاءها، ففي حزنه عليها إنما هو في حقيقة الأمر يشفق على نفسه وعلى أولاده الصغار نلاحظ دمج العاطفة الإنسانية والمفهوم الإسلامي حيث يدعو لها ربّها بالشفقة والرحمة ثم يذكر أوصافها الحميدة وذلك بنبرة حزينة الموجودة في القافية ورديفها حيث جعله حرف (آ) و(راء) ثم بحركة مفخمة (ـُ) (ارُ) مما يُسمع نحيب الشاعر على فقيده، اِستولى على جرير الحياء وهو أمام حالة إنسانية فريدة تمثّلت في موت الحبيبة بما تعنيه هذه الكلمة فمنع نفسه من البكاء على رفيقته وحال بينه وبين زيارتها (وهي ثاوية في قبرها) وهي الحبيبة التي لا بد أن تُزار وأن تسكب عندها العبرات وإن كانت ميتة، لأنَّ الوفاء مدعاة لذلك، هذا الحياء كان يتقطر أَلَماً عظيماً أسسته العوامل الاجتماعية الغارقة في كبرياء غير مشروعة، فكبح جرير مآقي عينيه من الاِسترسال بذرف الدمع وغل أقدامه فمنعه من عبور الحاجز الوهمي لزيارتها. ولا ننسى أنّ جريراً لا ينتمي إلى أصل شريف كفريمه الفرزدق وهذا ما عوّل على نفسيته المكوث عند حليلته، وهذا ما أشار إليه يونج وعبّر عنه بـ"الظل": «الظل هو الشخصية المختفية والمنبوذة والمحقّرة التي تشعر بالذنب وتنتمي إلى الجانب الحيواني عند البشر، هذا الظل يُشير إلى الشر والخير الكامن في الإنسان» (يونگ، ١٣٧٠ش: ٤١٣) خاقاني يتطرّق إلى الأساطير الإيرانية في قضية موت "سياوش" وبكاء "كاووس" عليه فهو يأتي بنموذج على البكاء الصادق ويتبع هذا المنهج ولاينفك يبكي ويحقُّ له البكاء ويصف زوجته بالشمس التي دفنت بالتراب والطين ويطلب من الآخرين أن يتركوه يجزع كما أنّ قلبه لا ينفك من الجزع والبكاء. ولخاقاني رثاء خصّه لزوجته وأنّه حزين وذا وجع وألم شديدين حيث نلاحظ أنّ الرجل يبكي عليها بكاء مُرّاً:

بي باغ رخت، جهان مبنام! بي داغ غمت روان مبنام!
بي وصل تو كاصل شادماني است تن را، دلِ شادمان مبنام
بي لطف تو كآبِ زندگاني است از آتش غم، امان مبنام

(خاقاني، ١٣٧٥ش: ٣٣٩)

في هذه المرثية الشاعر يدعو على نفسه بالثبور والهلاك بسبب ما فقد وبسبب شدّة ألم الفراق، فلا العيش محموداً ولا الحياة رغدة، نلاحظ هذا الدعاء على النفس في الرثاء ورد في الشعر العربي نلاحظه عند المهلهل والنابغة الذبياني والخنساء، الشاعر في رثائه لا يريد لنفسه الحياة ولا الراحة ولا الفرح ويعود على قلبه بالضيم والتعب، فهكذا ظلّت نفسية جرير تكسر حاجز التقاليد السائدة وهو يشير إليها بعبارة "لولا الحياء". ويستمر جرير في بكائه:

Archive of SID

www.SID.ir

كَانَـت مُكرَمَـةَ العَشِـيرِ وَلَـم يَكُـن ... يَخشَـى غَوَائِـلَ أُمِّ حَـزرَةَ جَـارُ
وَلَقَـد أرَاكِ كُسِـيتِ أجمَـلَ مَنظَـرٍ ... وَمَـعَ الجَمَـالِ سَـكِينَةٌ وَوِقَـارُ
وَالـرِّيحُ طَيِّبَـةٌ إِذَا اسـتَقبَلتِهَا ... وَالعَـرضُ لَـا دَنَـسٌ وَلَـا خِـوَارُ
وَإِذَا سَـرَيتُ رَأَيـتُ نَـارَكِ نَـوَّرَت ... وَجهَـاً أغَـرَّ يَزِينَـهُ الإِسـفَارُ
صَـلَّى المَلَائِكَـةُ الَّـذِينَ تُخُيِّـرُوا ... وَالصَّـالِحُونَ عَلَيـكِ وَالأَبـرَارُ
وَعَلَيـكِ مِـن صَـلَوَاتِ رَبِّـكِ كُلَّمَـا ... نَصَـبَ الحَجِـيجُ مُلَبِّـدِينَ وَغَـارُوا

(جرير، ١٩٩٩م: ١٥٧)

وهاهو أمام جنازة زوجته يراها تمر به، ومن الممكن تصور مشاعره وهي تفيض لتملأ كأس روحه بالأسى، ومن هنا كانت قصيدته الرائية هذه لتكسر ما هو متعارف عليه وبذر بذرة أينعت فيما بعد وصارت شجرة كان له فيها قصب السبق، لقد وصف جرير زوجته بأحسن الأوصاف وخصها بأفضل الخصال، وأغدق عليها من المشاعر والأحاسيس ما يصور حزنه ولوعته، فها هي: كريمة النفس، جميلة المنظر، وقورة، هادئة شريفة، وكذلك فهي: أصيلة المنبت والنسب وطيبة القلب، ويمتد بجرير ذلك الاحتفاء بما تحمل زوجته من خلق رفيع وجمال بديع، كله يصوره وفاء رائعا بدموع مكبوتة حسرات لاذعة وبلهب نار مسجرة بالقلب فيسبغ عليها من حلل الحسن نفسا ومنظرا حتى يصل إلى روعة الوصف للجمال البريء، نرى في هذه الأبيات الحس الديني الواضح ونرى الألفاظ الإيمانية فالشاعر هنا في مقام الدعاء، فهو يدعو لزوجه بالرحمة والمغفرة ويدعو الله بأن يغسلها بالماء الزلال الغزير الذي يغسل الذنوب ولا يبقي منها شيئاً، وها هو يستمر بالدعاء بالمطر في الأبيات الأولى على قبرها الذي هو في وادي برقة، ويصف ذلك المطر بأنه له صوت أجش قوي ووميض لامع وهذا يدل على غزارة المطر وقوته، ويختم دعاءه بصلاة الملائكة عليها والأبرار والصالحين، والحجيج كلما رفعوا أيديهم إلى قيام الساعة، وهو هنا لم يختر أي ناس للدعاء لها بل اختار الذين دعواتهم مستجابة وهذا يدل على إيمانه العميق. نشاهد الكبت النفسي عند جرير لكن يخرج من ضيق المجتمع ويتفرّد بقلبه الجريح، فَقدُ الزوجةِ وفَقدُ الإبنِ والفقرُ وكبرُ الشاعر في السن كل هذه العوامل جعلته يجتاز التقاليد وينذب زوجته خالدة:

يـا نظـرةً لـك يـومَ هَاجَـت عَـبرَةً ... مِـن أم حَـزرةَ، بِـالنُّمَيرَةِ دارُ
تُحيـي الـروامس رَبعَهَـا، فَتَجِـدُّهُ ... بَعـدَ البِلَـى، وَتُمِيتَـهُ الأَمطَـارُ
وَكَـأنَّ مُنزِلَـةً لَهَـا بِجَلَاجِـلٍ ... وَحـيُ الزَّبُـورِ، تَجِـدُّهُ الأَحبَـارُ

Archive of SID

www.SID.ir

لا تُكثِـــرَنَّ إذَا جَعَلَـــتَ تَلُـــومُنِي لَـــا يَـــذهَبَنَّ بِحِلمِـــكَ الإكثَـــارُ
كَـانَ الخَلِـيطُ هُـمُ الخَلِـيطُ فَأَصـبَحُوا مُتَبَـــدِّلِينَ، وَبِالـــدِّيارِ دِيَـــارُ
لَـــا يَلبَـــثُ القُرَنَـــاءُ أن يَتَفَرَّقُـــوا لَيـــلٌ يَكِـــرُّ عَلَـــيهِمُ وَنَهَـــارُ

(جرير، ١٩٩٩م: ١٥٧)

الشاعر هنا في لحظة وداع يفارق زوجته ويُصوّر لنا قبرها ومكانه بالنميرة، ثم يُعرّج على وصف قبرها ويصف الرياح والأمطار على قبرها ثم يوغل في وصف القبر حتى يصف مكان جري الماء على طرفي القبر وكأنّه سطور مكتوبة (وحي الزبور) كتبها الأحبار، ثُمّ يعلم بأنّ في المجتمع مَن يلومه على رثاء زوجته ولذلك خاطبهم بـ(لا تكثرن إذا جعلت تلومني) ثم يتذكر صحبتها وما كانت عليه ويتحسّر على فراقها ويشتعل قبله ألماً مُرّاً على فراق خالدة والجميل في هذا الرثاء أنّ جريراً لم يذكر اسمها "خالدة" وإنما جاء بكنيتها أم حرزة وهذا مِن وقار الرجل واحترامه لها. ثم يتصدى لما عاب عليه الفرزدق ويقول: (جرير، ١٩٩٩م: ١٥٨)

أفَـأُمَّ حَـزرَةَ، يَـا فَـرَزدَقُ، عِبتُم؟ غَضِـبَ المَلِيـكُ علـيكم القهـارُ
كَانَـت إذَا هَجَـرَ الحَلِيـلُ فِرَاشَـهَا خُـزِنَ الحـديثُ وَعَفَّـتِ الأسـرارُ
لَيسَـت كَأُمِّـكَ إذ يَعَـضُّ بِقُرطِهـا قَـينٌ وَلَـيسَ عَلَـى القُـرُونِ خِمَـارُ

الشاعر يتساءل سؤال الحيران المستغرب المتعجّب لماذا هذا العيب على رثاء الزوجة؟ فيخاطب الفرزدق بيا لإفادة القرب والعتاب ثم في الشطر الثاني يدعو على الفرزدق ومَن لفَّ لفَّه ثمّ في البيت الثاني يذكر أوصافها وأنّها تكتم السرّ وتحفظ سرّ زوجها وهذه خصلة حميدة ونادرة عند النساء؛ لأنّ أغلبهن يُحببن الإكثار في الكلام ولهذا يُفشي السر عندهن في حديثهن، ففي هذه الأبيات يكون جرير قد ربط بين جزءي القصيدة ربطا محكما، ففيها يذكر أم حرزة زوجته واسم الفرزدق، والذي يتأمل الشطر الثاني من البيت ذاته يجد المرارة العظيمة التي افرزتها روحه بسبب رحيل زوجته، والألم العظيم في نفسه أشعل ناره على الفرزدق ليرد بكلمات تتجاوز شخص الفرزدق الى أمه التي هجاها جرير، فالعين بالعين، تظل مرثاة جرير هذه من أروع المراثي الزوجية إن لم تكن القمة، ففيها تصوير صادق لحالة الموقف الاجتماعي والموقف النفسي الذين عاناهما وقدم من خلالهما حالة الأسى التي اكتنفت مشاعره وصورت أحاسيسه الجيّاشة الصادقة. أما خاقاني فهذه الزوجة هي زوجته الأولى بنت الشاعر أبي العلاء الكنجوي، ومِن أشعاره يفهم المتلقي أنّه متيّم بها وأسلوبه سهل وليّن ولا نلاحظ أيّ خشونة في أسلوبه في قصيدته هذه، لأنّ هذه القصيدة

Archive of SID

www.SID.ir

صدرت عن قلبه المحترق حيث يدعو على نفسه بالهلاك بسبب فقدها، ثمّ يجيب على الذي أوصاه بالزواج بغيرها: (خاقاني، ١٣٧٥ش: ٣٣٩)

گفتـــي دگـــري كنـــي، مفرمـــاي — كـــاين در ورق گمـــان مبينـــام
بـــي تـــو مـــن وعـــيش حـــاش لله — كـــز خـــواب خيـــال آن مبينـــام...
غمخـــوار تـــو را بـــه خـــاك تبريـــز — جـــز خـــاك تـــو غـــم نشـــان مبينـــام

أنكر الشاعر على القائل بالزواج بغيرها وذلك ليُبيّن شدّة حبّه بها، والغريب في هذا الرثاء أنّ خاقاني له نظرة تشاؤم على النساء بصورة عامة ويزدريهن ويحتقرهن وأنّهن سبب هلاك الرجل وحقارته وحبّ النساء عنده يوازي أسره عند الرجال أي: التعلّق الشديد بالنساء يوازي أسر الرجل عند الرجال (غني پور ملكشاه، ١٣٩٤هـ: ٨٤؛ نقلا عن حسيني، ١٣٨٨ش: ٦٦) وفي قصيدة أخرى أسماها "نوبتِ شادي گذشت" «ذهب وقت الفرح» يندب زوجته بهذه الأبيات:

ديـر خبـر يـافتي كـه يـار تـو گـم شـد — جـام جـم از دسـت اختيـار تـو گـم شـد
خيـز دلا، شـمع بـركن از تـفِ سـينه — آن مـهِ نـو جـوي كـز ديـارِ تـو گـم شـد
حاصـل عمـر تـو بـود يـك ورق كـام — آن ورق از دفتـر شـمار تـو گـم شـد
نقـش رخ آرزو بـه روي كـه بينـي؟ — كآينـهِ آرزو نگـارِ تـو گـم شـد
از رهِ چشـم ودهـان بـه اشـك وبـه نالـه — راز بـرون ده كـه رازدار تـو گـم شـد
چشـمِ بـدِ مردمـت رسـيد كـه ناگـاه — مـردمِ چشـمِ تـو از كنـارِ تـو گـم شـد

(خاقاني، ١٣٧٥ش: ٣٤٥؛ شعار، ١٣٧٠ش: ٣٦-٣٧)

في هذه القصيدة الحزينة التي تتحدث عن ذهاب الفرح والسرور، فالشاعر يندب زوجته وبالأحرى يندب نفسه حيث لا أنيس له بدلها ويبدو من هذا الرثاء أنه لا يفتأ يذكرها ويذكر خصالها الأخلاقية وأنّها حافظة للسرّ (رازدار تو گم شد) وأنّها شابة في ريعان الشباب وأنّها جميلة ثم في قصيدته الأخرى يعترف الشاعر بهزيمته أمام القدر ولايحلّ أحد محل زوجته ولهذا يكثر مِن البكاء والحزن عليها «رثاء خاقاني يُصوّر عاطفته الجيّاشة ودون الرجوع إلى مراثيه لا نستطيع التعرّف على حسّه المرهف في الرثاء على الاطلاق» (محسني نيا وآخرون، ١٣٨٨ش: ٨٨) ونلاحظ في رثائه أنّه يُشير إلى قضايا شعبية حيث يشير إلى الحسد وأنّ زوجته أصيبت بالحسد "چشمِ بدِ مردم ترسيد" وهذه من ميزات رثاء خاقاني حيث يُبيّن

Archive of SID

www.SID.ir

لنا الأوضاع الاجتماعية والأعراف السائدة آنذاك في مجتمعه. «خاقاني الشرواني الذي عنده مقدرة عالية في الشاعرية وأنّه مِن أبرع الشعراء في موضوع فقد الأحبة اتّجه نحو المراثي وجعلها كفنٍّ، في دراستنا النفسية لمراثي الخاقاني ودراسة شخصية ونفسية خاقاني توصلنا إلى أنّه في ذاته نزاع بين السلبية والإيجابية، نفسية تحبّ الظهور والشهرة والوصول إلى المراد ووجدانه يردعه مِن الوصول بذلّة....وكلّ ما كانت المصيبة كبيرة كانت مراثية سهلة وكان يبتعد عن الصناعات والتعقيد» (طايفي وخالقي، ١٣٩٣ش: ١٤٨). ولهذا نلاحظ في ديوان خاقاني الضخم أسهل القصائد هي قصائد الرثاء وخاصة رثاء زوجته وإبنه وهكذا الأمر عند جرير بن عطية.

مقارنة رثاء جرير وخاقاني وفق المدرسة الأمريكية

المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن بالنسبة إلى المدرستين الفرنسية والروسية لها أفق أرحب إذ لا تشترط اختلاف اللغة في الدراسة المقارنة وإنما ترتكز على الثقافة ومحورها الرئيس النقد الأدبي ولهذا عُرفت بالمدرسة النقدية (شركت مقدم، ١٣٨٨ش: ٦٢) وفق المدرسة الأمريكية التي تتصف بصفة النقد وفكرتها الأصلية تدور حول الثقافة بهذه الخلفية تكون المقارنة وفق النظرة الاجتماعية التي كان يعيشها جرير بن عطية حيث هناك مِن حيث الثقافي حياء لرثاء الزوجة لأنّ البيئة العربية الجغرافية الخشنة أثّرت على خشونة الرجال هناك وبنفس الحال البيئة الصحراوية أعطت ذخّاً هائلاً من التفكير والرومنسية لأدبائها وشعرائها فتلاحظ جرير مع حبّه لزوجته لكن يبدأ بـ:

لَولَا الحَيَاءُ لَهَاجَنِي اِستِعبَارُ وَلَزُرتُ قَبرَكِ وَالحَبِيبُ يُزَارُ

فهناك في ذلك المجتمع حياء لرثاء المرأة والطفل ودليل آخر لهذا الحياء أنّ جريراً وإن كانت قصيدته موجعة ومبكية وحزينة لكنّه لم يفرد لزوجته قصيدة كاملة وإنما هي جزء مِن نقيضة مِن نقائضه مع الفرزدق وهي تكوّن الأبيات الأولى للقصيدة ولربّما هناك قصائد في رثاء زوجته لكن بسبب الحياء لم يُعلن عنها ولربّما أبادها خوفا مِن لوم اللائمين وخوفا مِن هجاء الأعداء كما مرّ وعيّره الفرزدق بهذه الأبيات، ويقلب الظن أنّ هناك قصائد أخر لجرير في رثاء زوجته والدليل أنّ الفرزدق عيّره برثاء زوجته وهذه القصيدة ردّ على الفرزدق وفيها هجاء مرّ للفرزدق فيتبين أنّ لجرير قصائد قيلت غير ما نحن بصددها، ثم جرير يؤكد على جمالها وعلى أخلاقها النبيلة وأصلها ونسبها ثم يدعو الله تبارك وتعالى لها بالرحمة.

Archive of SID

www.SID.ir

أما خاقاني الشرواني فيعجّ ديوانه برثاء زوجته منها «نوبت شادي گذشت»، و«دردِ فراق»، و«بي باغِ رُخت، جهان مبينام»[١]، وغيرها مِن المراثي وأنّه أفرد لها قصائد في الرثاء وندبها وبكى عليها بكاء مُرّاً فلم يكن كجرير لا يتحدث عن حياء في رثائها وهذا اختلاف في الثقافة والتقاليد السائدة ولا ننسى مرور الزمن حيث الاختلاف ظاهر وبينهما قرون من الزمن وبين الشاعرين اشتراك أنّهما أصحاب التعقيد في الشعر لكن كلاهما يبتعد عن الصنعة والتعقيد في رثائه لزوجته وتأتي أشعارهما سهلة مرنة، قصائد خاقاني تتجه نحو موضوع واحد وهو الرثاء والبكاء على زوجته لكن قصيدة جرير هي ضمن قصيدة أخري، جرير يدعو لها الله سبحانه وتعالى ويعدد خصالها الحميدة لكن خاقاني لاينفك يبكي ويندب ويجعل بعض الأمور الشعبية كالحسد عاملا لوفاة زوجته ثم يوبّخ نفسه والدهر. فَعَلَى غِرار المدرسة الأمريكية التي تهتمّ بالشؤون الثقافية للدراسة المقارنة، ثقافة جرير جعلته يبدأ على استحياء وثقافة خاقاني جعلته يندب ويذم الدهر وحسّاده الذين أصابوا زوجته بحسدهم فأردوها ميّتة، لكن جرير كسَر التقاليد السائدة آنذاك ولو باستحياء في رثائه لزوجته، وحتى عَكسَ بعض التعابير المتعارف عليها، ففي الأدب العربي وفي الثقافة الإسلامية تعبير"لا يأخذ بحلمك الشيطان" تعبير رائج ويعني: اصبر؛ لكنّ جريراً عَكسَ هذا التعبير في رثائه:

لا تُكثِرَنَّ إذَا جَعَلتَ تَلُومُنِي ... لا يذهبنَّ بِحِلمِكَ الإكثارُ

(جرير، ١٩٩٩م: ٦٥)

يخاطب لَائمه بأنّه لا يُكثر مِن اللؤم ثُم بصورة غير تقليدية ومعاكسة للثقافة العامة العربية آنذاك يُعكس مفهوم الصبر بالجزع ويقول هذا الإكثار من اللؤم في البكاء والنحيب على "خالدة" يجب ألّا يُؤثِّر عليك ويجب أن لايفتأ تجزع ولا تصبر.

١. ولّى زمن الفرح، ألم الفراق، أدعو على نفسي ألا أرى النور إن لم أراك.

Archive of SID

www.SID.ir

النتائج

توصّل البحث في خاتمة مطافه إلى النتائج التالية:

- وِفق المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن لاحظنا أنّ جرير وخاقاني في رثائهما لزوجتيهما اتّبَعا الثقافتين العربية والفارسية السائدتين آنذاك بمجتمعيهما كلّ على حِدَة.
- مِن منظار المدرسة الأمريكية ووِفق ما نادى به "رينيه ويلك" حول الثقافة والنقد أنّ الأدب جزء لا يتجزأ مِن المجتمع ولا ينفك عن ثقافة الأديب، وعلَى هذا فَاِستحياء جرير بن عطية في رثائه وجعل هذا الرثاء ضِمن نقيضة مِن نقائضه مع الفرزدق أمرٌ ثقافي ولاينفك عن تقاليد مجتمعه ولذا عاب الفرزدق على جرير في رثائه، هذا المفهوم أيضا يُبرر ما ذهب إليه خاقاني في إدخال بعض القضايا الشعبية في رثائه كالحسد وغيره، فخلاصة القول ثقافة الشاعرين انعكست تماما في رثائهما.
- رثاء الزوجة في الشعر العربي كان قبل جرير بن عطية وإنّه رثاء صادق، كما أنّ رثاء جرير رثاء صادق وحزين وسهل دون تعقيد لذا يغلب الظن أنّ رثاء الزوجات لجرير ولغيره من شعراء العرب كثير لكنّه مفقود، أما في الشعر الفارسي فرثاء الزوجة وافر كثير ولخاقاني قصائد موجعة في رثاء زوجته.
- أسلوب جرير بن عطية خشن ومعقّد وبدويّ لكنّه لَانَ في رثائه وهكذا أسلوب خاقاني وهو المعروف بخشونة وتعقيد أسلوبه لكنّ أسلوب مراثيه وخاصة مراثيه لزوجته سهل وليِّن. فنفسية الشاعر هي انعكاس لما يلاقيه في مجتمعه وما تحويه ثقافته، فهو متأثر بثقافة مجتمعه وثقافته الشخصية لذا يسهل التعقيد عند شاعرينا ويلين رقة على المرثية وتعاطفا مع ثقافته.

هناك اشتراك في نفسية جرير وخاقاني وهما يشتركان في عُقدة الحقارة والنقص؛ نسب جرير غير معروف وفقره يزيد الطين بَلَّة، وهكذا فقر خاقاني وفقر أبيه وكثرة عدوانه للوصل إلى الشهرة. وهناك إشتراك آخر وهو موت زوجتيهما وولديهما.

Archive of SID

www.SID.ir

المصادر والمراجع

١. أبوعاذرة، آمال عودة سليمان (دون تا). رثاء الزوجة في الشعر العربي الحديث ديوان حصاد الدمع لمحمد البيومي أنموذجا. رسالة الماجستير في اللغة العربية وآدابها، الأستاذ المشرف عمر الأسعد، الأردن، جامعة الشرق الأوسط للدراسات العليا.

٢. ابن منظور، محمد بن مكرم (١٩٩٦م). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي، ج٥، مادة رثي.

٣. افسري كرماني، عبدالرضا (١٣٧١ش). **نگرشي** به مرثيه سرايي در ايران. طهران، انتشارات اطّلاعات.

٤. إمامي، نصرالله (١٣٦٨ش). مرثيه سرايي در ادبيات فارسي ايران. طهران: دفتر مركزي جهاد دانشگاهي.

٥. الأندلسي، ابن عبد ربه (١٩٨٣م). العقد الفريد. تحقيق عبدالمجيد الترحيني، بيروت: دار الكتب العلمية.

٦. پروين، خليل (١٣٩١ش). الأدب المقارن دراسات نظرية وتطبيقية. طهران: منشورات سمت.

٧. الجبوري، يحيى (دون تا). الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه. بيروت: مؤسسة الرسالة.

٨. جرير بن عطية (١٩٩٩م). ديوان جرير. تحقيق محمد بن حبيب، بيروت: مؤسسة الأعلمي.

٩. حوّر، محمد إبراهيم (١٤٠١هـ). رثاء الأبناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي. أبو ظبي: مكتبة المكتبة.

١٠. خاقاني، بديل بن علي (١٣٧٥ش). ديوان خاقاني، **چ**كامه‌ها وتركيب بندها. ج ١، تحرير مير جلال الدين كزازي، طهران: انتشارات نشر مركز.

١١. خزعلي، أنسية؛ أونق، سميه (١٤٣٦هـ). «المرأة في روايات خولة القزويني، البيت الدافئ وسيداتٌ وآنساتٌ نموذجاً». مجلة اللغة العربية وآدابها، فرديس قم جامعة طهران، السنة ١١ ، العدد ٣، خريف ١٤٣٦هـ، ص٤٠٩.

١٢. الخطيب، حسام (١٩٩٩م). آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً. دمشق: دار الفكر.

١٣. زرين كوب، عبدالحسين (١٣٧٨ش). ديدار با كعبه جان. طهران: انتشارات سخن.

١٤. شركت مقدم، صديقه (١٣٨٨ش). «مكتب‌هاي ادبيات تطبيقي». مجله مطالعات ادبيات تطبيقي، كرمان، السنة ٣، العدد ١٢، ص٦٢.

Archive of SID

www.SID.ir

١٥. شعار، جعفر (١٣٧٠ش). **گزيده** اشعار خاقاني. طهران: انتشارات قطره.
١٦. شفيعي كدكني، محمدرضا (١٣٧٩ش). موسيقي شعر. ط ٦، طهران: آگاه.
١٧. طايفي، شيرزاد؛ خالقي، آنيتا (١٣٩٣ش). «نقد روانكاوانه سوگنامه‌هاي خاقاني شرواني». **پژوهش**نامه نقد ادبي وبلاغت، جامعة طهران، السنة ٣، العدد ٢، ص١٤٨.
١٨. عبوّد، عبدة (١٩٩٩م). الأدب المقارن مشكلات وآفاق. دمشق: اتحاد الكتّاب العرب.
١٩. غني پور ملكشاه، أحمد؛ محسني، مرتضى؛ خسروي، سوگل (١٣٩٤ش). «جستاري در مرثيه‌هاي خاقاني شرواني». فصلنامه **پژوهش**هاي ادبي وبلاغي، جامعة طهران، السنة ٣، العدد ١٠، ص٧٨.
٢٠. الفرزدق، همام بن غالب (دون تا). ديوان الفرزدق. بيروت: دار صادر.
٢١. قدامة بن جعفر (١٩٣٤م). نقدالشعر. تحقيق محمد عيسى ممنون، القاهرة: دار المعارف.
٢٢. القيرواني، ابن رشيق (١٩٦٣م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد، بيروت: دار الجيل.
٢٣. محسني نيا، ناصر؛ پوريزدان، آرزو؛ كرماني، پناه (١٣٨٨ش). «مرثيه سرايي در ادب فارسي وعربي با تكيه بر مقايسة مرثية ابوالحسن تهامي ومرثية خاقاني شرواني». مجلة ادبيات تطبيقي، السنة ٢، العدد ٨، ص١٧٧.
٢٤. المرزباني (١٩٦٠م). معجم الشعراء. تحقيق عبدالستار أحمد فراج، حلب: مطبعة عيسى البابي الحلبي.
٢٥. النورسي، روناك توفيق علي (٢٠١٢م). «رثاء الزوجات في الشعر العباسي دراسة موضوعية». مجلة كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، العدد الخاص بالمؤتمر الأول، ج ٢، ص١٣١.
٢٦. يونگ، كارل گوستاو (١٣٧٠ش). خاطرات، رؤياها، انديشه‌ها. ترجمة پروين فرامرزي، مشهد: آستان قدس رضوي.

Archive of SID

www.SID.ir